العولمة وإشكالية الهوية في العالم الإسلامي «مقاربة نقدية»

د . علي سموك ●

مقدمة:

يتزايد الإدراك، مع بدء الألفية الثالثة، بأن الجنس البشري يمر على أعتاب مرحلة جديدة من التحولات المجتمعية، تعتبر العولمة أبرز سماتها الأساسية. فهي العملية الرئيسة التي تشغل حاليا العالم بتجلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي أدت بدورها إلى تأثيرات متعددة، في مجالات مختلفة، من أبرزها مشكلات الهوية والتعددية الثقافية، وذلك في ظل خطاب عالمي مهيمن يطرح صيغة جديدة للمجتمع العالمي بما يطلق عليه «المجتمع الشبكي»، الذي يستمد مسلماته الثقافية من عالم افتراضي Virtuel ضمن نسق إعلامي يتسم بنفاذه إلى كل أرجاء الكون، وتأثيره في قيم وعادات وأساليب الحياة لملايين البشر، الذين ينتمون إلى ثقافات جد متنوعة، ويتصف بأن وحداته المكونة متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً، ورسائله بالغة التنوع في الوقت نفسه.

وهكذا فإنه ضمن هذا المنظور يتضح بأن هناك نزعة لدى الدول الكبرى المسيطرة اقتصاديا تحاول أن تدفع بالعولمة كعملية تاريخية في اتجاه التقنين القسري لأوضاع المجتمعات، بما يخدم مصالحها الخاصة ولو على حساب دول العالم الأخرى التي تواجه تحديات في حركة نموها العام،

● قسم علم الاجتماع - كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية -جامعة باجي مختار – عنابة

وهـي في العمق نزعة إلى الهيمنة الثقافية تجعل الهويات المختلفة والتي عـادة ما تعبر عن خصوصيات ثقافية راسخة – نتيجة عمليات التراكم التاريخي – في مواجهة مباشرة مع العولمة. وينطبق ذلك على وجه الخصوص على تأثير العولمة في هوية مجتمعات العالم الإسلامي، التي تعيش بدورها حركة نمو غير متوازنة وانكماشاً في دورها الحضاري الريادي المعهود عنها تاريخيا في العالم كله، بفضل قواها الإنشائية الإبداعية في مختلف مجالات الحياة، وكذا عدم تمكن ما تبقى من «القوى الفاعلة» فيها من تأسيس هوية تدفع بالعالم الإسلامي نحو المستقبل بسبب تضارب الواقع و اهتزازه.

وفي زمن التناقضات هذه والتحديات التي يواجهها العالم الإسلامي، والتي تهدد بإفقاده ما تبقى من مقومات حضارية، يبقى سؤال ما العمل ؟ السؤال الحضاري المنسي والمغيّب بصفتة سؤال الذات الواعية المتحفزة للعمل لا الغارقة في البحث عن تسويغات للوضع المتوعك، في زمن العولمة «المخيف»، تلك العولمة التي يقال عنها إنها تريد مزيدا من الخنوع للإنسان المسلم، وهذا الأخير غائب أم مغيّب: فما العمل ؟ و الوطن يتآكل: فما العمل؟ و الجمود الحضاري مخيم: فما العمل ؟. و هنا تتجلى إشكالية العالم الإسلامي مع هويته والتي ولدت تداعيات عليه من جميع التكتلات الحضارية الأخرى: فما العمل ؟.

أولا- في أسئلة التأسيس:

إن ثقل الماضي وهيمنته على الوعي بالهوية في العالم الإسلامي الحديث والمعاصر معطى واقعي لابد من الاعتراف به قصد السيطرة عليه ولا أظن أن هناك من يستطيع أن يجادل في أن الماضي يشكل في الوعي الإسلامي الراهن عنصرا محوريا في إشكالية الهوية، ومن السذاجة إغفاله أو الطموح إلى تحقيق الاندماج في عالم متغير بالقفز عليه، و هل نحتاج هنا إلى التذكير بأن كثيرا من المسلمين يتقاتلون، بل يقتتلون بدوافع ترجع إلى ذكريات من الماضي.

إن هذا الواقع يخبر عن تواجد خلل بنيوي مستحكم بالرؤى الفكرية و بترجمتها العملية، وإعادة إنتاج التخلف يلزم في البدء التنبيه لتحرير أدوات الإجابة على سؤال التاريخ و الحضارة من ضيقها العاجز عن تفسير ظواهر العالم الإسلامي في إطارها الواقعي الكلي و المتداخل. فداخل هذا التركيب ينبغي تتبع سلسلة الوقائع و الأحداث التي أوصلت الاجتماع الإسلامي إلى حالة الغثاء الحضاري. فأدوات النظر الكلاسيكية تبدو قاصرة عن استيعاب الاجتماع الحديث وبالمثل عاجزة عن بناء انفتاح أصيل يستوعب المحلي و الكوني لذلك تبقى عملية الانبعاث داخل

هذا الفضاء مشروطة إلزاما بتصحيح يشتغل عليه العقل، يتناول كيفيات مقاربة العوائق والتحديات، إذ لا يمكن التخلص مما هو سلبي إلى وضعية أرقى، والذات الجماعية المسلمة مغتربة و تستهلك ماضيا ميتا و تطبق أدوات للتفكير مهترئة [1].

فما يميز العقل الإسلامي في تجليه العلمي عبر تاريخه الحديث تدني أثره، إن لم نقل غياب فعله، وحالة لافاعليته تبدو نتاجا لنمطية الأشغال التي تحكم سيره. فالعقل ينتج فعله في حدود تلك الأنشطة ومن خلال إمكانياتها، و لن يتهيأ له أن يتجاوزها إلا بإرادة وعي تستوعب الثبات وتؤسس للانطلاق [2].

و لكون العقل الإسلامي لم يضع بعد تأسيسا بينا لهويته المنفتحة و لمشروعه الحضاري الحداثي يظل متراوحا في إطار بحثه المتردد عن اعتداله الوجودي بين جدل الاسترجاع التاريخي وإكراهات الواقعي.

إن العلاقة الجدلية بين العولمة وإشكالية الهوية علاقة تبادل التأثير واقع لا ينكره أحد، ويبقى اتجاه هذه العلاقة الجدلية في فترة من الفترات وبالتالي الشكل الذي تتخذه و المظلة التي تستظل بها، و مهما يختلفان ليس فقط باختلاف العصور والمراحل التاريخية بالنسبة إلى العالم ككل بل يتباينان أيضا بتباين الوضعيات و اختلاف العوالم.

وإذا كان لنا أن نأخذ بمعطيات عالمنا الراهن فإن المعطى الذي يفرض نفسه اليوم هو أن مسألة الهوية لم تعد في الظل ولم تعد تابعا، بل إنها تطغى على سطح الأحداث أو على الأقل تزاحم وتضايق على هذا السطح غيره من المعطيات [3].

وبعد، فكيف نعالج إشكالية الهوية في العالم الإسلامي في ظل إكراهات العولمة ؟.

لا سبيل إلى ذلك إلا بالنظر إلى هذه الإشكالية من خلال ما به تتحدد و تتخصص، أعني مفهوم العالم الإسلامي كماض و حاضر و مستقبل، وإن ربط هذه الإشكالية بمفهوم العالم الإسلامي معناه إبعاد جميع التحديدات الأخرى التي تجد مرجعيتها، إما في العالم الإسلامي ذاته، أو في أماكن أخرى من العالم هذا من جهة، و من جهة أخرى لابد من تجنب المتاهات التي قد يوقف فيها مفهوم الهوية إذا نحن أخذناه هكذا بإطلاق و من دون تحديد، أو إذا نحن نسقنا مع تحديدات الأبحاث الأنثربولوجيا الغربية التي لا تستبني مفاهيمها و لا تصوراتها من دراسة مجتمعات العالم الإسلامي بل من دراسة مجتمعات لا يمكن و لا يجوز و ضعها في مستوى واحد مع مستوى مجتمعات العالم الإسلامي سواء في الماضي أم في الحاضر.

لابد إذن من تحديد مفهوم الهوية من داخل العالم الإسلامي ذاته، و إذن فنحن نفكر في «هوية هنا»، و بالتالي نتحدث عنها لا بالمعنى الغربي بل سنفكر فيها و نتحدث عنها بالمعنى الإسلامي للمفهوم.

وإذا، فمسألة الهوية في العالم الإسلامي هي في مظهرها الأول و المباشر مسألة المادة المعرفية المستهلكة و طريقة استهلاكها و إعادة إنتاجها. إنها إذا إشكالية الفكر، الفكر كمحتوى، و الفكر كأداة، على أن هذا النوع من التحديد لإشكالية الهوية في العالم الإسلامي سيبقى أشبه بالمصادرة على المطلوب إذا هو لم يبرر تبريرا كافيا، ونحن نعتقد أنه يجد تبريره الكافي في الوظيفة التاريخية للهوية في العالم الإسلام. كما أننا عندما نتحدث عن إشكالية الهوية فإننا في الغالب نطرح مشكلا أو مشاكل تخص شعبا معينا و تتعلق بالدرجة الأولى بالهوية الوطنية أو القومية لهذا الشعب أو ذاك، ذلك لأن مقولة « إشكالية الهوية » تبقى مقولة فارغة إذا لم تضف إلى جماعة بشرية معينة « فالإشكالية » هي سؤال يطرح نفسه في صورة مشكلة، والمشكلة لا تكن مشكلة إلا إذا كان هناك موضوع به ذات تشعر بها وتعانيها [4].

و بما أن الهوية ظاهرة بشرية أي خاصة بالبشر، فإن موضوع «إشكالية الهوية » الموضوع الذي تتعلق به لابد أن يكون جماعة بشرية ولا يمكن أن تكون هذه الجماعة البشرية ذاتا تشعر بهذه المشكلة و تعانيها إلا إذا كانت جماعة محددة يسمونها وعي جماعي منسجم يجعل منها كلا واحدا، أو على الأقل يجعلها تشعر أنها تشكل هذا الكل الواحد، وذلك مثل الأمة أو المجموعة الإقليمية. مقابل هذا، فالعالم الإسلامي ليس موطنا لجماعة أثنية واحدة بل لجماعات ومجموعات ذات أصول أثنية مختلفة، و العالم الإسلامي ليس أرضا لدولة واحدة بل تتقاسم رقعته الجغرافية دول و دويلات بعضها يمتد بجذوره إلى الماضي وبعضها لا جذور له، وبعبارة أخرى، إذا كانت كل المعطيات الموضوعية الإثنية والسياسية و الثقافية... إلخ تكرس التعدد، فالاختلاف القائم بين الدول الإسلامية بعضها مع بعض لا يقل عن الاختلاف القائم بين أي قطر منها و بين أية دولة أجنبية، بل إن الارتباط بين الدول الإسلامية، كلاً على حدة و بين بعض الدول الأجنبية في مجالات الاقتصاد و السياسة و التعليم أقوى و أمتن في الوقت الحاضر من الارتباط القائم بين أية دولة إسلامية و أخرى في هذه المجالات [5].

وإذن، فلا الاقتصاد و لا السياسة و لا برامج التعليم توحد حاليا بين الدول الإسلامية و إنما يوحد بينها، بل يفرض الوحدة عليها عنصر واحد هو «الهوية الإسلامية »، فلهذه الأخيرة هي في

آن واحد جغرافيا و دين و ماض مشترك ومستقبل مأمول، و من هنا كانت وظيفتها التاريخية ووظيفتها التوحيدية هي هويتها نفسها، لا بل ماهيتها نفسها، ذلك لأن الإسلام كان و لا يزال المقوم الأساسي بل الوحيد للأوطان الإسلامية، و بالتالي للهوية الإسلامية و يكفي أن يتساءل المرء ماذا سيبقى للمسلمين من دون الإسلام ؟.

تلك إذن، هي الوظيفة التاريخية للهوية الإسلامية في العالم الإسلامي، «وظيفة التوحيد المعنوي، الروحي و العقلي»، وظيفة الارتفاع بالعالم الإسلامي من مجرد رقعة جغرافية تحضن شعوب و دول تدين بالإسلام إلى وعاء لأمة لا تكون إلا بالهوية الإسلامية [6].

والمسألة المطروحة على الوعي الإسلامي المعاصر، هي كيف العمل على تقوية و تنمية هذه الوظيفة التاريخية للهوية الإسلامية حتى تستطيع الدفع بالنزوع الوحدوي في العالم الإسلامي خطوات حاسمة إلى الأمام في عالم يناصبها العداء و يقوم على الهيمنة و إلغاء الآخر ؟.

ذلك أن مسألة الهيمنة الحضارية المبطنة في مشروع العولمة ما كانت لتطرح نفسها كموضوع للبحث والمناقشة لولا أن هناك إحساسا عاما بأن ثمة شيئا ما يهدد ما تبقى من الهوية الإسلامية من خارجها.

والآن و قد تبينا بما فيه الكفاية أن هناك فعلا في استراتيجية العولمة ما يهدد الهوية الإسلامية بالاختراق والاستتباع، فإنه سيكون من المفيد جدا أن نعمد إلى تحديد ما تعنيه «العولمة» ولا نحتاج هنا إلى إثارة مشكل تعريف العولمة، فالمشكل في نظرنا ليس في العولمة ذاتها بل في قيم العولمة و استراتيجيات صانعيها و مصالحهم.

وواضح أن تعريفا للعولمة يفكر فيه في إطار الوضع الدولي الراهن، والذي يطرح مسألة إلغاء الحدود المادية و الرمزية،

لابد أن يشدد على إشكالية الهوية، لأن إزالة الحدود « هو اختراق الهوية أساسا ». لنقل إذن، إننا نقصد –الهوية- هنا ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات التي تميز جماعة بشرية حضارية، و تمنحها بالتالي صفة الأمة في إطار ما تعرفه هذه الأمة من تطورات بفعل حركتها الداخلية و قابليتها للتواصل و الأخذ و العطاء مع الآخر. وبعبارة أخرى، إن الهوية هي المعبر الأصلي عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون و الحياة و الموت و الإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يفعل وما لا ينبغي أن يفعل..وهكذا ففي الهوية وبالهوية يدخل الفرد البشري حقا في البعد الإنساني للحياة

ويسمو عما فيه من مقومات بيولوجية وبالهوية تتخذ حياته شكلا خاصا فهي التي تعطيه الجذور وهي التي تموضعه في المكان والزمان وتجعله حاملا للتراث وهي التي تفتح أمامه إمكانات وأفاقا خاصة يستطيع بها التعرف إلى العالم [7].

ثانيا : العولمة تقوم على الاختزال والإقصاء

كثيرا ما يلجأ البعض عن نية مبيتة، أومن قبيل الجهالة بالموضوع إلى اختزال العولمة في ظواهر الانفتاح الاقتصادي وتراجع حدود الزمان والمكان بفرض صيغ اقتصادية وثقافية واجتماعية جديدة بيد أن ظاهرة العولمة هي أوسع وأعقد من أن تختزل إلى هذا الطرح الفج. ومن ثم. فالعولمة ليست مجموعة ظواهر فرضت قيمها المادية والرمزية على المجتمعات المتخلفة، بل هي حالة في التاريخ وحالة من التطور المعرفي وبالتالي الحضاري تستمد جذورها من العقل الغربي، ليتجسد ويتمظهر في ممارسات الرأسمالية المسيحية الحديثة وتجلياتها العالمية، حيث نصبت نفسها بديلا حضاريا وحيدا لا شريك له. ومن ثم، نظاما أو تشكيلا اقتصاديا اجتماعيا.

من الكتب الأخيرة التي أصدرها مروج نظرية «نهاية التاريخ » فرانسيس فوكوياما «مستقبلنا بعد البشري» – عواقب ثورة التقنية الحيوية – وهو في الأصل مقال كتبه سنة 1999 في الذكرى العاشرة لمقاله الأصلي المعنون «نهاية التاريخ»، والذي يتبنى فيه رؤية الفيلسوف «هيجل» الذي قال إن التاريخ انتهى عام 1806 بانتصار «نابليون »، وهو ما قاله «فوكوياما»في سقوط الشيوعية عام 1989.

لقد توصل إلى أن الحجة الوحيدة التي لم يكن من الممكن إبطالها هو أنه لا يمكن أن تكون هناك نهاية للتاريخ ما لم تكن هناك نهاية للعلم، حيث يحاول أن يربط بين العلم والمستقبل السياسي للبلدان الغربية الليبرالية.وقبل أن يمضي في التحليل في كتابه الأخير يشير إلى أن هجمات 11 سبتمبر لا تشير إلى صدام الحضارات، بل إن فعل السلفية الجهادية بائس قام به حرس المؤخرة وسيسحق في المستقبل بفعل التحديث.

يحاول «فوكوياما» أن يوجه الرأي العام نحو خطر الإرهاب البيولوجي كتهديد، حيث يشير إلى الحاجة لتحكم سياسي أكبر في استخدامات «العلم والتقنية»، ومن خلال توظيفه لروايتين الأولى رواية «لجورج أورويل» صدرت سنة 1984 والثانية « عالم شجاع جديد» لـ:«أدوس هكلي»، حيث يصل إلى أن خطر تهديد تمثله التقنية الحيوية «البيولوجيا» هو احتمالية أن تقوم بتغيير الطبيعة البشرية، وبالتالي تنقلنا إلى مرحلة «ما بعد البشري من التاريخ »، وهذا التطور له

تأثيره على الديمقراطية الليبرالية وعلى طبيعة السياسة في حد ذاتها. وحيث يتساءل: ما الذي يجب علينا فعله إزاء التقنية الحيوية التي ستخلط في المستقبل بين الفوائد العظيمة المحتملة وبين تهديدات قد تكون مادية واضحة أو روحية وخفية ؟.

ومن ثم، يستطرد « فوكوياما «، يجب علينا استخدام سلطة الدولة لتنظيم ذلك، وبناء مؤسسات تفرق بين الاستخدامات الجيدة والسيئة للتقنية الحيوية، ويرى أن التدخل العلمي في «الجينوم» يمكن أن يدفع نحو تغيير الطبيعة الإنسانية لتكون أكثر ديمقراطية وحرية. ومن هذا المنطلق يضعنا هذا المفكر أمام الاحتمالات التالية:

- يفترض كثيرون أن العالم ما بعد البشري سيشبه كثيرا عالمنا هذا، أي أنه يمتلىء بالحرية والمساواة والرخاء، مع رعاية صحية أفضل وأعمار أطول وربما ذكاء أعلى من معدلات الذكاء الحالية.
- وقد يصير العالم القادم أكثر هرمية وتنافسية ويتميز بالصراعات الاجتماعية ويصبح عالما تضيع فيه «فكرة الإنسانية المشتركة» وربما يكون ما تتصوره رواية «عالم شجاع جديد»، فالجميع يتمتع بالصحة والعافية لكنهم جميعا ينسون ما يعنيه الأمل أو الخوف أو الصراع [8].

إن هذا الخطاب القديم –الجديد، نجد جذوره في الخطاب الأثنولوجي الذي تكوّن مع «بيار كلاستر» يتضمن في جانب منه محاولة الكشف عن « الاستبعاد » الذي مارسه الغرب على الآخر، فإقصائه للآخر من الاجتماع، يدل على ما ينتاب الذات الأوروبية من شك و اضطراب، كما يقول «هشام جعيط » حيث تكشف بجلاء عن عمليات النفي الذي مارسته الذات الغربية على نفسها، من خلال نفيها للمجنون و الشاذ و المريض و الطفل... و هكذا يبدو أ ن جميع المحاولات تتم في الوقت نفسه على جذور النظرة إلى الغير في ميدان التحليل النفسي أو في ميدان الأثنولوجيا أو في ميدان الاستشراق، وذلك لأن نظرة الغرب إلى الشرق تتضمن مقدارا من النفي له – و حقيقة النفي – نفي الذات للآخر، تعني أن ننفي على الآخر ما تملتكه « نحن » و عليه فإن كل معرفة بالآخر هي وجه من أوجه المعرفة بالذات.

وهكذا، إذ تنفي الذات الغربية المجنون و المنحرف في داخلها فلكي تؤكد على معقوليتها وسويتها.. و إذن تنفي الشرقي أو أيا كان خارجها فلكي تؤكد على تقدمها و حداثتها[9].

ومن ثم، فالكتابات و التحليلات التي تهاجم الإسلام في الغرب ترى فيه عدو الغد الذي يجب

شن حرب حضارية عليه، ما جعل « برهان غليون » يتحدث عن عنف من النوع الثالث، حيث يقول: إنه لم يتطور بعد، لكنه يصر أنه سيتطور و سيصبح السمة الرئيسة للصراع العالمي في المستقبل. و يعني « غليون » بعنف الحضارات عندما يتحول الصراع إلى أعماق التكوينات السياسية و الثقافية و الدينية و ستكون هناك ليس مجتمعات عنف كما هو حاصل الآن إنما حضارات عنف، ثم تحويل العنف من عنف ظرفي إلى عنف تاريخي. بحيث سنعرف في المستقبل كما يرى « غليون » حضارات مسالمة و أخرى تتسم بالعنف. و هكذا ، فالإشارة واضحة هنا إلى الحضارة الإسلامية على أنها هي المعنية بالعنف ، أكثر من ذلك فهي بالتالي تشكل خطرا على الحضارة المعاصرة ، و هو الكلام الخفي و هي الرؤى التي تجد من يتبناها في صفوف اليمين الجديد في أوروبا ، و لكن يبقى التساؤل عن مضمون العولمة التي لا تقوم على العلم و لا على تصورات ثقافية محددة ولكنها تقوم على النفوذ التقليدي باسم العشيرة أو التاريخ أو باسم قيم أخرى في كل الأحوال لا علاقة لها بالعلم والطبيعة البشرية وهنا يلح علينا التساؤل أمام عولمة جديدة نحتاج فيها في المستقبل إلى علاجات بيولوجية ليس للأمراض التقليدية ، ولكن لأمراض سياسية هي جينات تحتاج للتعديل والتغير وفي كل الأحوال ستزداد تبعية العالم الإسلامي في أشكال جديدة [10] .

ثالثا : العقل الإسلامي لا يفكر عقلا :

ترفض الباحثة اليابانية «كاروكوثورمي» الرأي الذي يعتبر العلوم والتكنولوجيا قضايا مستقلة عن ثقافة أي مجتمع معين. فلكل ثقافة طرقها التقليدية الخاصة للوصول إلى المعرفة وللعمل، كما أن النقلة النوعية في تطبيقات المعرفة تعتبر عاملا من عوامل التقدم الديناميكي في المجتمع، وفي ظروف مواتية يمكن لهذا العامل أن يكون حافزا ممتازا لعملية الإبداع الداخلي [11]. ومع هذا المنحى يلتقي «روني ماهو» حيث يعتقد، أنه لا علمية للمعرفة إلا بالروح التي هي (أي المعرفة) من نتائجها، والتي تعطيها معنى لدى الإنسان ومغزى حيث تطبيقها على الأشياء.فالعلم ليس شكلا من الصيغ والوصفات التي من تلقاء ذاتها تمنح الإنسان سلطات مجانية على المخلوقات... ومشكلة التقدم التكنولوجي في البلدان التي مازالت تشكو من نقص في التنمية لا يمكن حلها جذريا باستيراد التقنية الأجنبية، أو التوطين العاجل للعلوم التطبيقية الجاهز بشكل من الأشكال. فلا يمكن للتقدم أن يتحقق بصورة جذرية إلاّ بالخلق والدعم حسب سياق ينمو داخليا في قلب الحقيقة الإنسانية للمجتمعات المعنية من الوجهتين الثقافية والاجتماعية للعلم (...) إن

العلم في حد ذاته مجتمع... مجتمع يحتوي على شيء رائع، هو امتلاكه وبذلك فهو يعد و يشكل إنسانية الغد، لكن يستطيع هذا المجتمع البزوغ والازدهار في أي سياق كان. ومن ثم، فكل فعل للثقافة والعلم، أيًا كانت مادته أو وسائله أو دوافعه أو حجمه أو ظروفه هو أساسًا فكرة من الإنسان حول الإنسان[12]. فالثقافة العلمية البحثية المنحصرة في المعاني والعلوم الدقيقة التجريدية منها والمادية التجريبية التي بلغت ذروتها في الثورات العلمية التكنولوجية المتدافعة والتي تصنع العالم المعاصر بما أحدثه من توازنات وتغيير في موازين القوى، وتأثير حاسم في العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية عالميا.

فمنذ أزيد من ثلاثة قرون وهذه الطفرة العلمية التكنولوجية الهادئة تغير حياة المجتمعات في معاشها وعمرانها، وتفعل فعلها في أنظمة الحكم والحياة السياسية، وفي وضع الجيوش، قوة وتنظيما، وجعلت الوفرة المعرفية التطبيقية والنظرية في العلوم التجريبية الدقيقة وفي العلوم الاجتماعية المختلفة. كل هذا يتسارع بتلك الطفرة عند الحروب والصراعات حول مناطق النفوذ واحتكار الثروات المادية[13].

لقد تشعب النقاش في العالم الإسلامي حول ضرورة وكيفية اللحاق بقطار العولمة، وضمن أي مشروع؟، فهناك من تحدث عن الهوية وضرورة صيانتها، غير أن معظمهم قال: لا وقت للمقاومة والمساومة ولابد من الجري للحاق به وإلاَّ سيجلس الجميع على رصيف التاريخ، وتساءل آخرون إن كان لدينا مقعد في هذا القطار؟ فرد المتحمّسون إن الصعود إلى القطار ضروري من دون مقعد، وقد قيل هذا الكلام التنظيري وكأن هذه هي طريق الخلاص الوحيدة أمامنا خاصة بعد أن وقعنا اقتصاديا في الفخ الثلاثي :

- بورصة ول ستريت
- وزارة الخزانة الأمريكية
- صندوق النقد الدولي

وهذا ماسيرهن ما تبقى من قوة العالم الإسلامي وتجبرها لمصلحة الأقوى دائما. ومنه، فهل مازال في الوقت متسع لكي نعيد التوازن إلى العالم الإسلامي ؟ وهل هذا العالم يسير حقا وفقا لمصلحته ؟ أم يحقق مصالح الآخرين ؟.

ومن هذا تأتي أهمية الدراسات المستقبلية لنعرف ماذا يخبئ المستقبل للعالم الإسلامي ؟ في هذا الصدد يقول «وليد عبد الحي» : إن الثورة الحقيقية تكمن في تحول الزمن من كم فيزيائي

دهري استياتيكي إلى وعاء حاضن للمتغيرات والمتناقضات، ومعنى قوله-تحول الزمن - من منظور دهريي استاتيكي إلى منظور ديناميكي. أعطى للحرية معنى أعمق من ذي قبل فأمدها بدلالات مستقبلية، جعلها أكثر قابلية للتطويع.

ولأن ميزة العصر هي سرعة التغير والتغيير وجب علينا رصد هذه المتغيرات لنعرف ما ينتظر العالم الإسلامي غدًا وما هي آليات التكيف مع هذّا العصر لئلا يسبقنا الزمن فنجد أنفسنا من المتخلفين[14].

إن الولايات المتحدة الدولة الأقوى حاليًا تعمل جاهدة على منع ظهور قوة منافسة بتأكيدها على العولمة بأبعادها كافة، والسيطرة على مناطق الطاقة، إضافة إلى دعم القوى الإقليمية المتناغمة معها. والإشكالية الرئيسة التي يطرحها «وليد عبد الحي» تتمثل في طرحه لمفهوم القطب من زوايا ثلاث، الأول : القطب الدولي ويعني به أمريكا ، والثاني : الإقليم القطب الذي يُعد الأكثر أهمية كل دولة في إقليمها . وعلى المستوى الثاني في الرؤية الأمريكية للعالم الإسلامي وبالضبط رؤيتها للشرق الأوسط والذي سوف يقسم إلى شرقين الأول: شرق شرقي والثاني شرق غربي، وذلك لخدمة مصالحها أولا وإسرائيل ثانيا.

ويطرح الباحثون في المستقبليات مسألة غاية في الأهمية عن عالم الغد الذي غيب فيه العالم الإسلامي كأمة وكهوية وكقوة حضارية لها مكانها في البنية الجيوستراتيجية للمجتمع الدولي المعاصر الذي أعلن موت الكاريزما السياسية لتتحول من كاريزما الشخص إلى كاريزما الآلة، أي أن الإنسان لم يعد له أية أهمية على صعيد الفعل، فهو يجتر ويكرر ذاته، فتم من الناحية الواقعية التحول من شخصانية القلب إلى شخصانية العقل. ومن هنا بنت العولمة ونشأت فكرة الهيمنة الأحادية بشكل مطلق ولهذا السبب أعلن «فوكوياما» نهاية التاريخ، فقد انتصر نظام اقتصاد السوق الذي يقوم على الليبرالية والتحرر والخصخصة والعولمة.

وفي ظل هذا الزخم يمر العالم الإسلامي بمخاض اسمه «الفوضى الخلاقة» تسعى من خلاله القوى العظمى إلى التحكم في الموارد الطبيعية على نذرتها والإبقاء عليها سوقاً مزدهرة للأسلحة من كل الأنواع، وأيضا الإبقاء على ورقة وحش اسمه الإرهاب الدولي وطاقية القاعدة كعنوان لهذه الهستيريا الدولية الساعية إلى تبرير استراتيجية تسويق الخوف دوليا، فالعديد من الدراسات لخبراء أمريكان، وعلى رأسهم (نعوم شومكي) يقرؤون في هذه الهستيريا المقصودة والتي تخفي مصالح آنية مالية واقتصادية هدفها احتكار القوة، وأخرى بعيدة المدى هدفها بسط هيمنة

الإيديولوجيا الليبرالية المسيحية على العالم الإسلامي[15].

لقد أشرنا سلفا إلى الكتابات التي تهاجم الإسلام في الغرب وترى فيه عدو الغد الذي يجب شن حرب باردة حضارية عليه وهي كتابات لابد أن يكون لها تأثير سلبي على نهضة العالم الإسلامي الحضارية حتى ولو كان الأمر يتعلق بمجرد كلام لا يجد طريقه إلى التطبيق، ويتمثل ذلك التأثير السلبي أو ما يتمثل في ردود الفعل السلبية التي يستثيرها في صفوف المسلمين ولا بد أن تكتسي عند بعضهم إيحاء للنكوص إلى الوراء للتشبث في مواقع حصينة قصد الدفاع، فنكون هكذا أمام نزعة ما ضوية ترى المستقبل في الماضي.

إن هذا الانقلاب الذي حدث في مجال العلاقات بين العولمة والهوية والذي يجسده تراجع الشعارات المعبرة عن مسألة العولمة لحساب شعارات مسألة الهوية، لم يعد ينظر إليه اليوم على أنه حدث عارض يمر سريعا كما تمر الموضة بل غدا موضوعا اجتماعيا ثقافيا وسياسيا وجيوستراتيجيا يتحدث عنه، بل ويحلل ويدرس تحت عناوين من نوع (عودة المكبوت) وعودة المقدس (في العام الغربي) والصحوة الإسلامية والمراجع الروحية في العالم الإسلامي[16].

هويتنا لا توجد بل هويتنا تصنع:

وإذا، يجب النظر إلى العولمة وإكراهاتها على العالم الإسلامي ليس فقط بوصفها فعلا خارجيا تحركه الرغبة الغربية في الهيمنة، بل يجب النظر إليها كذلك من خلال ردود الفعل السلبية التي يستثيرها ذلك الفعل في واقعنا الإسلامي الراهن، هذا الواقع الذي لابد من استحضار معطياته التي من شأنها أن تتأثر أكثر من غيرها.فإلى هذا الواقع نتجه الآن بتحليلنا.

في البدء، إذا أردنا أن نفهم تاريخنا لابد أن نفهم تاريخ الغرب وحتى تكتمل لدينا عناصر الهوية الغربية لابد أن نفهم تاريخ أوروبا لا لشيء لأن الأمة لا تجدد من أصل من الماضي بل تتجدد بأهداف مستقبلية. ومن ثم فالهوية فعل مستقبلي وهي تشكل مستمر للعالم في حالات متغيرة.

واضح أننا لا ندعي أن الوحدة الإسلامية ستتحقق عمليا من خلال الوظيفة التي يمكن أن يؤديها الدين الإسلامي أو الثقافة الإسلامية إنما ندعي فقط أن الدين الإسلامي هو الذي رفع من شأنها من مجرد رفعة جغرافية إلى حضارة وهوية تعترف بالآخر المختلف وتتعايش معه وتقدس خصوصيته وتصون هويته.

إن القضية التي تشغل اهتمامنا ليست التحقيق الفعلي للوحدة الفعلية للعالم الإسلامي

بل فقط قضية إعادة تأسيس الوعي بالهوية الإسلامية، علما بأن هذه الأخيرة إذا ما حركت في اتجاه يخدم حاضرها ومستقبلها، ذلك لأن حاضر العالم الإسلامي لم يجد بعد سبيله إلى إعادة ترتيب علاقته بالماضي ومن ثم شق طريقه لبناء علاقته بالمستقبل، بل هو يتراوح بين ماض لا يستطيع التحرر منه لأنه يمتلكه ويأسره وبين مستقبل لا يستطيع الارتماء في أحضانه لأنه غير مؤهل له بعد لأنه خطط له من دونه.

وبالتالي يجب إعادة ترتيب العلاقة مع الماضي كي تتضح أمامنا معطيات الحاضر ومعالم المستقبل بوعي صحيح غير زائف[17]. والتخطيط لهوية الماضي معناه إعادة تأسيسها في وعي الإنسان المسلم، بل إعادة بنائها كتراث يحويه بدل أن يحتويه، إن ذلك وحده ما يجعل العالم الإسلامي قادراً بالفعل على تأسيس هوية المستقبل، ومن هنا تبدو لنا واضحة وجليّة إحدى المهام الرئيسة التي يجب أن ينجزها التخطيط لهوية الماضي، إنها إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، لأن التاريخ الإسلامي السائد هو مجرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج بشكل رديء للتاريخ الإسلامي نفسه الذي كتبه الأسلاف تحت ضغوط وإكراهات العصور التي نشأوا فيها وفي حدود الإمكانات العلمية والمنهجية التي كانت متوفرة.

وإذن، فنحن مازلنا سجناء للبنى والمعرفية والمناهج القديمة التي وجهتهم وتحكمت في إنتاجهم مما يجرنا دون أن نشعر إلى الانخراط في صراعات الماضي ومشاكله، و إلى جعل حاضرنا مشغولا بماضينا، وبالتالي النظر إلى المستقبل بتوجيه من مشاكل الماضي وصراعاته [18].

فنحن إذا، في حاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بروح نقدية وبتوجيه من طموحاتنا في التقدم، ومن ثم لنفسح المجال للعقل ليمارس دوره النقدي الخلاق استعدادا للنقلة النوعية كما أن التعدد في مكونات الهوية الإسلامية واقعة أساسية لا يجوز القفز عليها، بل بالعكس لابد من توظيفها بوعي في اغناء وإخصاب الهوية الإسلامية وتطويرها وتوسيع مجالها الحيوي.

نستطيع أن نستمر طويلا في سرد المظاهر التي نبرز من خلالها أهمية الهوية في عالم اليوم ولكننا سنكتفي بما ذكرنا لأن ما يهمنا هنا ليس استقصاء تلك المظاهر، بل يهمنا فقط إثارة الانتباه إلى الأهمية التي تكتسبها إشكالية الهوية كما تطرح، بل كما ينبغي أن تطرح بالنسبة إلى العالم الإسلامي خدمة لحاضره ومستقبله والذي تشكل الهوية أهم

مقومات وجوده إن لم نقل مقومه الأساسي على الإطلاق.

وإذا، فإشكالية الهوية في العالم الإسلامي هي في مظهرها الأول والمباشر مسألة المادة المعرفية المستهلكة وطريقة استهلاكها وإعادة إنتاجها... إنها إذا، مسألة الفكر الإسلامي كمحتوى، والفكر الإسلامي كأداة، على أن هذا النوع من التحديد لإشكالية الهوية في العالم الإسلامي سيبقى أشبه بالمصادرة على المطلوب إذ هو لم يبرر تبريرًا كافيًا، ونحن نعتقد أنه يجد تبريره، الكافي في الوظيفة التاريخية للهوية في العالم الإسلامي.

رابعا: سؤال ما العمل؟

إن الدوغمائيين هم الذين أساؤوا فهم العولمة والهوية على حد سواء، وإن ما يجري اليوم في العالم الإسلامي هو إصرار على إخضاع العالم الإسلامي لقراءة أحادية للتاريخ، كما أن نقد العولمة لم يأت من المسلمين.. و أن الحضارات لا يمكنها أبدا أن تتصادم، وهي لا تلتقي إلا للثراء الحضاري، و إذا كان هناك صراع، فإن سمية الحضارة ستسقط لفتح المجال للإيديولوجيا، وهذه النظرية هي في الحقيقة إيعاز مفضوح من قبل « الصقور الأمريكان » لتحرير المفاهيم التي تمت بأي صلة للواقع الذي يكشف يوميا بأن هناك التقاء إيجابيا بين الحضارات، بالتالي، فإن الغرب لم يعد يشكل نموذجا يحتذى به، وحريّ بالعالم الإسلامي أن ينفتح على مرجعيات أخرى تغلبت على التخلف مثل الصين، واليابان و الهند.. لابد إذا، من التخلص من العلاقة المرضية مع الغرب، لا بد أن نقطع مع الغرب، فنحن إما منغلقون على الذات أو منفتحون على الغرب فقط كون نظم الإدراك المتحكم فيها هو الغرب، و بالتالي أصبحنا ننظر إلى ذواتنا المملاة من الغرب عن طريق توظيف الإشكاليات الغربية في الفكر الإسلامي، فانحرف الفكر الإسلامي نحو توظيف الذاكرة لتسويغ المقولات فأقام العالم الإسلامي علاقة جامدة مع التراث وأنشأ في الخيال أشياء جامدة وأصبح لا يعرف كيف يعمل بالتنوع فأصابه الارتباك والخلط بين الهوية والدّين، ومن ثم، صار الإنسان المسلم تائها بين الإسلام كدين والإسلام كثقافة، و الإسلام كهوية، والإسلام كإيديولوجيا سياسية.

ومن ذاك، فالعمل في البدء لا بد أن يطال النخب المهيمنة لأنها منفتحة على الغرب فقط، والمطلوب في الوقت الراهن الانفتاح على نماذج جديدة في التقدم .

وفي هذا الخصم المشوب بالقلق تبدو أولى المهام المنوطة بالنخبة المسلمة افتكاك دور

المهندس لمقولات الفعل الإسلامي الجديد، و هذا بإعادة بنائه من الداخل وممارسة العولمة وما تحمله من قيم الحداثة في «معطياتها وتاريخها، والتماس وجوه من الفهم والتأويل لمسارها ما يسمح بربط حاضر العالم الإسلامي بماضيه في اتجاه المستقبل».

ولأننا أمة للدين فيها الأثر الأكبر، يجب العمل على إحداث تغيير شامل في هذا الفكر لزيادة البيان وتوسيع مساحة الاجتهاد وإفساح النظر في النصوص، وبالنتيجة إماطة اللثام عن الجهل بالعلم منهجا و تطبيقا والجهل بالدين فقها وإنتاجًا.

ومنه، على المسلمين أن يعوا جيدًا أن الهوية متصل إبداع وفعل مستقبلي، وهي تشكيل مستمر للعالم، والكف عن الحديث المرضي عن الهوية بصيغة الماضي الميّت.

المراجع:

(1) . محمد عابد الجابري: العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإديولوجي، مجلة فكر ونقد – العدد 21، 1991، الدار البيضاء، المغرب، ص – ص. 5-14.

(2)- MOHAMED ARKOUN : Islam, religion et société, ED. cerf, PARIS, 1992, P-P.98- 215.

(3) – MOHAMED ARKOUN : islam hier et demain, ED. bruchet castel, PARIS, 1993, P-P.105- 201

(4)- MOHAMED ARKOUN : pour une critique de la raison islamique, ED. Maisonneuve, PARIS, 1948, P-P .25 - 45

(5) – IBID : P- P. 60 - 173

(6) – MOHAMED ARKOUN : ouvertures sur l'islam, ED. Maisonneuve la rose ،1984, P-P .140 -151

(7) – PIERRE CALAUT : la crise identitaire dans le monde musulman, ED. Gallimard, PARIS, 66-2006, P – P. 30

(8) – DANEIL PERIAUX : L'esprit dela Mondialisation, ED, Plon, Paris, 2007, P.25

(9) – BOURHAN GHALIOUN : identité Culture et politique Culturelles dans les pays Dépendants, IN – Peuples MEDITERRANÉE, № 19, juillet – septembre, 1981, Paris, P-P. 66 - 70

برهان غليون: حديث حول العنف والحرب ضد الإرهاب، جريدة الخبر الجزائرية، عدد يوم (10) الخميس 23 ماي 2004

(11)- MASAMIRO SAKAMOTO : le JAPON VERS le 21= siècle, in – La Revue Futuribles № MAI 1997, P-P. 3- 23

(12) – 45-MAHAEU RENE : La civilisation De L'Universel, ED, LAFFONT, Paris, 1991, P-P. 25

(13) – IBID : P – P. 46 – 48

(14) وليد عبد الحي وآخرون: آفاق التحولات الدولية المعاصرة، دار الشروق، الأردن، 2003، ص-ص. 10-45

(15) - المرجع السابق: ص-ص.50-115

(16) – VINCENT BOUDER : La Mondialisation En question, ED, La Découverte, Paris, 2007, P – P. 201 – 223

(17) حسن الإمام : أي دور للعالم الإسلامي في القرن 21؟، الدار المغربية للكتاب ، الدار البيضاء،المغرب 2008، ص- ص. -14 43.

(18) المرجع نفسه: ص- ص. -103 119.